الأستاذ بيرم كمال

مقياس المجتمع الجزائري وفعالياته

السنة الأولى ماستر حديث

تقديم

البحث في التاريخ والاجتماعي والاقتصادي للجزائر في الفترة الحديثة والمعاصرة يأخذ مكانه هامة من حيث انه يزيل غشاوة الماضي ويكشف اللثام عن أمور ما تزال تشغل بال الكثير من الباحثين والكتاب وعامة الناس. والتطرق لجوانب المجتمع بخلفياته العرقية وامتداداته التاريخية وعلاقاته وتحولاتها ،قد لا تجد عند الكثير من القراء ما يفي حقها في نظرهم في مثل هذه الأبحاث، والتي نعتقد أنها على الأقل توفر مادة أساسية في التعرف على ماضينا وثقافتنا .

و مما تجدر ملاحظته منهجيا عند دراسة موضوع المجتمع الجزائري عامة ، وما حصل له من تحولات جوهرية في نسقه التقليدي الاجتماعي والاقتصادي ، نعرف أنهتشكل من القبائل او العروش التي كانت مصطحبة من الناحية الاجتماعية بتأطير داخلي من طرف أسر و عائلات برزت بقياداتها وزعاماتها منذ فترة طويلة، إذ لعبت دورا قياديا داخلها، إما اجتماعيا، اقتصاديا، سياسيا، أو دينيا، سواء خلال فترة الأتراك وخلال القرن التاسع عشر و حتى بداية القرن العشرين.أراد الاحتلال الفرنسي منذ توسعاته الأولى ضرب هذا البناء القبلي خاصة في الريف الجزائري ،بمجموعة من الوسائل والسياسات التي أرادت من خلالها فرنسا تفكيك الوحدة القبلية التقليدية وجعلها أداة في خدمة المجتمع والاقتصاد الكولونيالي.

إلا أن ظاهرة استعمال مصطلح التاريخ الاجتماعي في هذه الأوقات لم يظهر على النحو المتأخر من الاحتلال الفرنسي، لان مسالة الوطن عند هذه القبائل التي كونت المجتمع كانت ضمن نطاق ضيق لم يتعدى الحيز الجغرافي للقبيلة او العرش، قبل ان تأخذ الوطنية الصفة الحالية ضمن الحدود السياسية التي تشكلت ضمن الوجود الاستعماري

الفرنسي،وجعلت المجتمع الجزائري يتنقل من الحيز القبلي الى النطاق الوطني الواسع الذي برز ت ملامحه منذ تميز الجزائري بأهليته التي ارادتها فرنسا ضمن قانون الانديجينا.

لقد شكلت الجزائر عامة خاصة خلال الاحتلال الفرنسي نموذجا لهذا التحول الاجتماعي بأدواره المختلفة ،السياسية والاقتصادية والثقافية ووجدت في وضع خطير من حيث انها شكلت بالنسبة للاستعمار الفرنسي مساحة ومجال لتطبيق أنواع الممارسات الاستعمارية التي اندرجت في إطار السياسات العامة لتحويل المجتمع والاقتصاد الأهلي في اطار النمط الكولونيالي الأوربي .

البحث في مسائل التاريخ الاجتماعي الإقليمي أو ألمجهري يتطلب الكثير من الجهد في التحقيق والدقة في مسائل لم تأخذ بعد الدراسة الكافية من الكتابات الوطنية ،لأنه لا تكفي أحيانا المدونات الفرنسية المكتوبة لتحليل الأوضاع المتعلقة بالمجتمعات التقليدية ، خاصة عندما يتعلق بمدونات الكتاب الفرنسيين .

اغلب الدراسات التاريخية تغفل مسالة الخوض في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية لكثير من مناطق الجزائر المحلية ،ونلمس هذا المنحى في كثير من محطات تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر ويصطدم به اغلب الطلبة والأساتذة.

تتناول المطبوعة عدة محاور تتعلق بالبنى الاجتماعية التقليديةو أردنا أن نقدم لهذا البحث بموضوع ظل يشغل كثير من القراء ألا وهو مسالة القبيلة وأصولها التاريخية . الكتابات التاريخية التي اعتمدنا عليها في هذا العمل والتي اغلبها لكتاب فرنسيون أو ضباط أو مترجمون ،حاولت تتبع منحى المغالطة التاريخية وربط الأمور بالأسطورة البعيدة عن الواقع إلا أنها رغم ذلك تقدم لنا معلومات هامة من صميم الذاكرة الجماعية

المحاضرة 1

مدخل حول التاريخ الاجتماعي

مدرسة الحوليات الفرنسية ودورها في ظهور التاريخ الاجتماعي والاقتصادي

تقديم

ظهر الاهتمام بالتاريخ الاجتماعي في البحث التاريخي متأخرا ،إذا ما قورن بالإنتاج التاريخي المتعلق بالأحداث والتراجم والسير ، وشكلت مدرسة الحوليات الفرنسية السبق في هذا المجال،وفي وقت كانت تعيش فيه الدول الأوربية أوضاع سيئة بعد الخسائر الجسيمة التي تكبدتها في الحرب العالمية الأولى ظهرت مدرسة الحوليات بتأسيس المجلة التاريخية

سنة 1929 التي annale d’histoireéconomique et socialالاقتصادية الاجتماعية قام بتأسيسها أستاذان شابان هما لوسيان فيفر، ومارك بلوخ حيت قرر الرجلان أن ينفخا في دراسة التاريخ روحا قوية جديدة ، بحيث ستأخذ الكتابة التاريخية أبعادا جديدة سوسيولوجية و لسانية وجغرافية و ديموغرافية، و تحول التاريخ إلى دراسة كل ما له علاقة بالإنسان، واهتم المؤرخ بالمدة الزمنية الطويلة عكس المدرسة المنهجية، وتقوم علي الانفتاح على كل الحقول والميادين لكن بتحفظ ومع إبقاء كل علم علي خصوصياته ، وبذلك أصبح التاريخ يدرس المجتمع بدل الفرد ، كما مال المؤرخ إلى دراسة تاريخ البنى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والذهنية ، بدل التاريخ السياسي الدبلوماسي والوثائق المكتوبة والمعاهدات ، ومع هذه الحركية والدينامكية والتجديد من طرف رواد هذا الجيل الحولي طفت إلي السطح تخصصات ثنائية مثل الديمغرافية التاريخية، التاريخ الاقتصادي ، التاريخ الاجتماعي، وبالتالي التاريخ أخد من العلوم الأخرى وأعطى لها الكثير فهو بيت الخبرة الإنسانية ومنطلق كل العلوم الإنسانية والدقيقة ، ومنبع معلومات لا يفنى، حيث لم يعد الاختلاف بين الأنثروبولوجي والسوسيولوجي والمؤرخ لايمس المناهج المستعملة وإنما يمس المادة المدروسة ، يدرس الأول المجتمعات البدائية ، والثاني المجتمعات المعاصرة ، والثالث المجتمعات المندثرة . وبدون شك توسعت فكرة الحوليات مع مرور الزمن وتطور التكنولوجيات،حيت يقول عبد الله العروي أن مدرسة الحوليات تجاوزت سمعتها كل الحدود ، حين نجد ممثلين عنها في كل أنحاء المعمور، من الهند إلى البرازيل ، ومن السنغال إلى تركيا.

<u>أهم أفكار مدرسة الحوليات الفرنسية</u>

بدون شك مدرسة الحوليات جاءت بأفكار وتصورات واليات جديدة ومستحدثة سواء في الكتابة التاريخية ، أو التعامل مع الوثيقة التي إتسع مفهومها ليشمل كل أنواع الوثائق.ذلك ظلت المدرسة التاريخية العربية التقليدية منصرفة إلى التاريخ الزمني من خلال تتبع الأحداث السياسية و أبطالها الدائمون من الملوك والعظماء والسلالات الحاكمة والأحداث السياسية والمعارك العسكرية والقادة والسياسيون , دونما اكتراث أو ربما مع شحيح اكتراث بدراسة بنية المجتمع من وجهة نظر مادية أو جغرافية أو اقتصادية، الخ أما قاعدة المجتمع من الطبقات

والحرف والثقافات والتشكيلات الاجتماعية للمهمشين والبسطاء وأدوارهم فذلك خارج الاهتمام إلا بما يخدم النسق العام فى تلك الكتابة النخبوية ,إلى أن بدت تلك المدرسة طويلة العمر مترامية الأطراف تفقد قيمتها العلمية بعد أن توجه البحث المنهجي العلمي في التاريخ إلى آماد جديدة تهتم بالتأريخ للمجتمعات،- يقول **بروديل** إن التاريخ "أراد أن يصغي باهتمام لكل علوم الإنسان وهذا أعطى لمهنتنا حدودا واهتمامات غريبة. لهذا لا يمكن أن نتصور أن توجد اليوم بين المؤرخ وملاحظ العلوم الاجتماعية نفس الحدود والاختلافات التي كانت توجد بينهما بالأمس، إن كل العلوم الاجتماعية بما فيها التاريخ تتبادل التأثير بينها، إنها تتكلم و يمكن أن تتكلم نفس اللغة". فإلغاء الحدود بين التاريخ والعلوم الاجتماعية أدى إلى بروز تخصصات ثنائية المشارب مثل الديموغرافيا التاريخية، التاريخ الاقتصادي، التاريخ الاجتماعي..الهيستوغرافياوالاتنوغرافيا الخ . الاستفادة من المفاهيم وتبني المناهج والتقنيات المستعملة في هذا العلم الاجتماعي أو ذاك، أدى إلى بروز تخصصات جديدة في ميدان التاريخ مثل تاريخ الذهنيات والتصورات أو تاريخ المؤسسات والمعتقدات أو تاريخ السلطة.

<u>التاريخ الاجتماعي ومدرسة الحوليات:</u>

إن هذا المجال (التاريخ الاجتماعي)يُعتبر مجالاً بيئياً دينامياً سريع النمو، له تداخل مع علم الاجتماع، وعلى صلة مهمة به. ووفقاً لذلك، يشير مفهوم التاريخ الاجتماعي إلى دراسة شبكة العلاقات الاجتماعية المتغيرة، وتطور النظم الاجتماعية، والتعديلات التي تطرأ على التصورات الاجتماعية والقيم.

كان التاريخ الاجتماعي قديماً يهتم بوصف عادات وتقاليد وأخلاق الشعوب، وأصبح الآن يدرس تاريخ العلاقات والمنظمات الاجتماعية التي ينتمي إليها الأفراد. وقد ارتبط التاريخ الاجتماعي بالتاريخ الاقتصادي، ذلك الموضوع الذي يدرس أسباب ونتائج التغير الاقتصادي وما يتركه من آثار في الحياة الاجتماعية ومنظماتها، والتي تتسم بالفوائد أو المضار الاقتصادية. أي أن التاريخ الاجتماعي والتاريخ الاقتصادي يكمل أحدهما الآخر، ما دامت

الموضوعات التي يتخصصان بها مترابطة متكاملة. وفي بعض الأحيان لا يمكن فهم أحدها دون التطرق إلى الموضوعات الأخرى.

وفي الواقع، إن التاريخ الاجتماعي والتاريخ الاقتصادي هما نتاج لما يُسمى بالتاريخ السياسي، وبخاصة تاريخ الحكومات. وقد أوضح "فيكو" في مؤلفه "العلم الجديد"، أن هناك تغيراً يجب أن يحدث من دراسة التاريخ الشخصي إلى دراسة العادات والقوانين والنظم، وأشكال التنظيم الاجتماعي والاقتصادي، واللغة، والفن، والدين، والعلم. والجدير بالملاحظة انتقلت الدراسات الجديدة بالكتابة التاريخية من النهج التقليدي الى منهج جديد اتاح فرص جديدة للكتابة من حيث:

1- **الإشكالات**: ظهر الاهتمام بإشكاليات جديدة، مثل الاهتمام بإشكالية التكميم وإشكالية التنظير في التاريخ ومسألة كتابة تاريخ الشعوب ذات الثقافة الشفاهية. من فنون موسيقى تراث علاقات..

2- المقاربات: بروز مقاربات جديدة تعتمد على الطرق الإحصائية والرياضية الأنتروبولوجيةوالأركيولوجية المختلفة

3- المواضيع: ظهور مواضيع جديدة ف ميدان الكتابة التاريخية مثل مواضيع: الطقس، الموت، اللاشعور، الجسد، المطبخ، الفيلم، العيد، الضحك. الامراض الفقر المسكن الملبس - التصور الجديد يخالف التصور القديم في جميع المستويات. و هكذا انتقلت بذلك الدراسات الى ميادين اوسع من خلال:

1 - تحول اهتمام المؤرخين من الخاص إلى العام و من الفرد إلى المجتمع.

2- تحويل الاهتمام من الأحداث إلى الثوابت.

3- التخلي عن أسلوب الرواية و تبني أسلوب التحليل.

4- تعويض لغة العموم بلغة العلوم، وهي لغة مشتركة بين العلوم الاجتماعية.

5- تبني المقولات النظرية التي فرضت نفسها في ميدان العلوم الاجتماعية مثل مقولة الطبقة والبنية والظرفية والنخبة...

6- تبني المفاهيم الكمية والتقنيات السيكولوجية وأساليب التحليل الحسابي وطرق

إضافة إلى هذه التغيرات العامة يمكن كذلك تسجيل تحولين أساسيين في صناعة الإحصاء التاريخ الجديدة، و هما تحولان مسا:

1- **مفهوم الوثيقة**: و هي أساس عمل المؤرخ، إذ اتسع مجالها كثيرا، وباتساع هذا المجال اتسع كذلك ميدان التاريخ إلى كل المواضيع.

2- مفهوم الزمن: وهو المفهوم المركزي في صناعة التاريخ، عرف بدوه تغيرا و توسعا لخصه بروديل في "ثلاثية الحقبة" التي أقام على أساسها التمييز بين ثلاثة مستويات من التاريخ و هي:

- التاريخ البنيوي: و زمنه المدة الطويلة، وهو زمن بطيء يتناسب و إيقاع التغيرات الجيولوجية والذهنية.

- التاريخ الظرفي: وهو تاريخ المدة المتوسطة، وزمن التحولات السوسيولوجية.

- **التاريخ الفردي**: وهو زمن المدة القصيرة، وزمن الأحداث السياسية والعسكرية والدبلوماسية.- "إن الحاضر و الماضي يضيء كل منهما الآخر"، وهي فكرة أساسية عند مؤسسي الحوليات الأولين و قد بلورها بلوخ، بوضوح في نظريته عن "التاريخ التراجعي".

- ذلك النسق الذي خلق مجموعة متلاحمة من العناصر الجديدة و الحاسمة في دراسة و كتابة التاريخ:

حقول الدراسة عند مدرسة الحوليات

استقت مدرسة الحوليات الفرنسية من العمل التاريخي الذي قدمته "مجلة التركيب و التي استقبلت في صفحاتها revue de synthèsehistoriqueالتاريخي"، 1900، مساهمات متعددة الاختصاصات داعية إلى إدراك عميق للواقع الاجتماعي وتحطيم الحواجز

بين مختلف الاختصاصات. بل أكثر من ذلك، شكلت كما يرى فيفر في مقالة له بعنوان "من مجلة التركيب إلى مجلة الحوليات" بؤرة انبثقت منها طموحات إنشاء مجلة جديدة تخدم هي أيضا العلم وتقدمه "حوليات التاريخ الاقتصادية و الاجتماعية". و المتتبع للظرفية الفكرية لهذه الفترة يلاحظ أن الأولى ظلت على الرغم من مكانتها العلمية لهذه الفترة يلاحظ أن الأولى ظلت على الرغم من مكانتها العلمية على هامش المؤسسات الجامعية و في حاجة إلى "الشرعية الأكاديمية"، بينما ظهرت الثانية في قلب الجامعة، جامعة ستراسبورغ التي أريد لها أن تكون واجهة ثقافية لامعة ومجددة للفكر الفرنسي أمام ألمانيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

- مدرسة "حوليات" نجحت لأنها جاءت بنظرة جديدة و مجددة للتاريخ، وطرحت أسئلة جديدة لدراسة و كتابة التاريخ. لذلك نجحت و انتشرت، و صمدت بين المدارس التاريخية الأخرى.

- استنكر أصحاب مدرسة الحوليات الفرنسية، التطويل و الحشو الزائد في الكتابات التاريخية في أوائل القرن 20م، و التي كانت تركز على الأحداث السياسية والمناورات الدبلوماسية. ولقد دعا هؤلاء المؤرخون في نظرة شمولية بحيث تصبح الأحداث السياسية مجرد مكون واحد ضمن مكونات أخرى متعددة تتصل بحقيقة روح العصر والحياة اليومية لبسطاء الناس. ذلك أن السياسيين على مختلف ضروبهم و سياساتهم يجيئون ثم يروحون، ولا تبقى في نهاية الأمر إلا نمط الحياة للشعوب في تفاعلهم مع بيئاتهم من حولهم. ولهذا فإن هذه المدرسة قد اهتمت بالبحث في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية بدلا من التركيز على الواجهة السياسية التقليدية، ولقد عبر بروديل عن هذا البعد الجديد بـ "المدة الطويلة"، الذي يعني عنده الاستمرار المادي الذي تتقلب على سطحه الأحداث السياسية.

- من جهة أخرى حمل موقف الحوليات شعبية معينة: القول بإعطاء حق المواطنة للمستضعفين الفلاح و الجنرال... كلاهما فاعل تاريخي يتساوى في الأهمية. و بالتالي التأسيس لبوادر كتابة تاريخية حديثة بدأت تجد تجسدها وانطلاقتها من اسم "التاريخ

الجديد".. - كان مارك بلوخ و لوسيان فيفر قد وصلا إلى سن النضج، و كانا يتمتعان بدعم دار النشر "أرماند كولان"، فأسسا مجلة "حوليات التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي"، سنة 1929.

- أعلنت افتتاحية العدد الأول عن هدفين:

- القضاء على عقلية التخصص، و تسهيل وحدة العلوم الاجتماعية.

- الانتقال من مرحلة المجادلات النظرية (مجادلات "مجلة التركيب")إلى مرحلة الإنجازات الملموسة، خصوصا البحوث الميدانية الجماعية في مجال التاريخ المعاصر.

ظهرت مدرسة الحوليات الفرنسية الشهيرة في مدينة ستراسبورج في العشرينات من القرن الماضي. على يد المؤرخين الشهيرين مارك بلوخولوسيان فيفر. ثم استمرت في الصعود وأنجبت بعضا من كبار المؤرخين .حتى وصلت عام 1970 إلى مرحلة الهيمنة المطلقة الفرنسيين من أمثال فيرنان بروديل، جورج دوبي، جاك لوجوف، الخ. وقد ركزت هذه المدرسة على دراسة البني الاقتصادية والاجتماعية والمادية والجغرافية الديموغرافية قبل أن تهتم بأي شيء آخر واتسعت حقول البحث التاريخي عند رواد المدرسة الفرنسية بعد النقلة النوعية التي شكلتها دراسة لوسيانلوفابر م **فيفر**lucien le febvre **:lucienFevbre** قدم اطروحة دكتوراه بعنوان: فيليب الثاني ومقاطعة فرانش **عندما1956 .** كونتي وانتقل الى دراسة البحر المتوسط في انماطه الاجتماعية والاقتصادية زمن فيليب بدل دراسة شخصية فيليب.تميزت دراسته ب: **1878)**

- **أولا** : توسيع حقل المعرفة التاريخية بالانفتاح على مختلف العلوم الاجتماعية والاحتكاك المتواصل بها.

- **ثانيا:** الاهتمام بقضايا أساسية و جديدة تمس التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والديموغرافي والذهني وذلك تجاوزا للتاريخ التقليدي المهتمة بالأحداث السياسية والعسكرية والدبلوماسية.

- **ثالثا**: إفراز أسلوب جديد في طرح الإشكاليات التاريخية و تصور جديد لزمن التاريخ.

وهكذا اسست مدرسة الحوليات الفرنسية منهج جديد في البحث في التاريخ ومواضيعه وفي كتابته من خلال الاهتمام اكثر بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمجتمعات باعتباره يجمع الرصيد الاوفر والاساس في الكتابة التاريخية الشاملة.